الموقع الرسمي لـ:
الأستاذ الدكتور موسى إسماعيل

الفِقهُ ليسَ حِكرًا عَلَى أحَدٍ،

وعقل الفقيه لا يحجره إلا الشّرع

بقلم
أ.د/ مُوسَى إِسْمَاعِيلْ

الفقه ليس حكرًا على أحد،

وعقل الفقيه لا يحجره إلا الشّرع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أمّا بعد: فإنّ عقول النّاس متفاوتة، وتصوّراتهم للأشياء ليس بالضّرورة أن تكون واحدة، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿76﴾﴾. [يوسف: 76].

والفقيه إذا نظر في المسألة وقلّبها من كلّ وجوهها، ووازن بين أدلّتها، وأعمل المقاصد الشّرعية في ترتيب أولوياتها، وفهم الواقع الذي يريد أن ينزّل الحكم عليه، واطمأن قلبه لذلك، لا يجوز لأحد أن يحجر عليه في عقله، أو أن يكون وصيًّا عليه في رأيه.

ونأسف أن نرى بعض المشتغلين بالفقه والأصول، يسعى لفرض الوصاية على عقول الآخرين، ولسان حالهم يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿29﴾﴾ [غافر: 26].

مَنْعُ الفقيه من البحث العلمي في الوقائع والمستجدّات، وحظره من النّظر في القضايا التي تشغل بال النّاس، والتّضييق عليه في إبداء ما يعتقده من حلول لمشاكل المجتمع العائقة لهم من السّير في حياتهم اليوميّة سيرًا معتادًا منتظمًا، وتقييد حرّيّته في اختيار ما يراه صوبًا ومناسبًا لرفع الحرج عن الأمّة فيما يعرقل أوضاعها ويثقل كاهلها؛ كمنعه من حقّه في الماء والهواء، بل هو أشد وأخطر، لأنّ المانع من البحث والنّظر، يكون قد أسكت الفقيه عن قول

كلمة الحقّ التي يعتقدها، وفي نفس الوقت حَرَمَ النّاس من رأي قد يكون فيه خلاصهم من مشاكلهم، وراحتهم من عوائق سيرهم في هذه الحياة، وقد جاء في الحديث عند ابن حبّان والحاكم عن عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنهما أنّ رسول اللّه ﷺ قال: **«مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»**.

وفي سُنن أبي داود والتّرمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه ﷺ قال: **«مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**؛ فمن يتحمّل الإثم ويُلْجم بلجام من النّار؟! هل هو الفقيه السّاكت الممنوع من إبداء رأيه والإفصاح عن اجتهاده؟! أو من منعه وألزمه القعود عن البحث وأسكته عن إبداء رأيه؟؟!!

ولا أقصد بالفقيه أدعياء العلم المتطفّلين، والمتفيقهة الثَّرثارين المتشدِّقين، وورثة المشيخة المزيّفة، الذين لا يحسنون إلّا الكذب على اللّه تعالى، والافتراء على رسوله ﷺ، ويظنّون أنفسهم أنّهم على شيء، وهم على شفا جرف هار فانهار بهم في نار جهنّم، الذين لا يملكون من الفقه إلّا اسمه، ومن القرآن إلّا رسمه، ومن السُّنّة إلّا حروفها، ويتفاخرون بالإجازات والشّهادات، والألقاب والأنساب، وهي إجازات كذب وشهادات زور، ويحملون أسماء وهمية وألقابًا مغريَةً مغشوشَةً، وربّما تزيّن بعضهم بعمامة العلماء وعباءة الخيّرين، وهم في الحقيقة أجساد بقلوبٍ غافلةٍ لاهيةٍ، ورؤوسٍ فارغةٍ، وأفكارٍ مضلّلةٍ، ظاهرها العلم، وباطنها الغباوة والجهل، أو يتزيّ بعضهم ببدلات معاصرة أنيقة، يغرون بها أعين النّاس ويخدعونهم، وهم يحملون ألقابًا مزوّرة وأوصافًا زائفة ومظاهر كاذبة، يَدَّعُونَ التّجديد بغير علم صحيح، ويَدْعُونَ إلى الاجتهاد من غير أصول ثابتة وقواعد واضحة، يضحكون على عقول بعض النّاس، ويخدعون البسطاء وضعفاء العقول، ويفتنون غير المتخصّصين، وما يُغرون بفعلهم هذا ولا يخدعون إلّا أنفسهم المريضة وما يشعرون، وهم كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿4﴾﴾ [المنافقون: 4]، وأشار إليهم النبي ﷺ في الحديث المتّفق عليه عن عبد اللّه بن عَمْرِو بن العاص قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**».

أمّا الفقيه الذي أقصده، فهو العالم المتخصّص في الشّريعة الإسلاميّة أصولًا وفروعًا، الذي نال إجازته بحقّ واقتدار، وأخذ شهادته بصدقٍ وشرفٍ، وحصّل علمه بجدٍّ ونشاطٍ وتفانٍ، مع إخلاص النّيّة لله سبحانه وتعالى وحسن القصد، وسلامة القلب وطهارة السّريرة، وصدق الإمام الجُنيد رحمه الله حين قال: «مَا طَلَبَ أَحَدٌ شَيْئًا بِجِدٍّ وَصِدْقٍ إِلَّا نَالَهُ، فَإِنْ لَمْ يَنَلْهُ كُلَّه نَالَ بَعْضَهُ».

ومن عجيب أمر بعض المختصّين في الشّريعة بجامعاتنا ومدارسنا الحرّة، أن تجدهم يحجرون على عقول الطّلبة، فلا يفتحون لهم باب البحث ليفجّروا طاقتهم الكامنة، ويستخرجوا منهم المواهب المغروزة في نفوسهم، ويستفيدوا من شعلتهم المتوقّدة؛ ويمنعونهم من البحث والنّظر!! أيُعقل أن يتدرّج هؤلاء الطّلبة في مراحل التّعليم، ليصلوا إلى مرحلة التّخرّج، ثم نمنعهم من إبداء رأيهم والإدلاء بأفكارهم!؟

وأعجب من ذلك أن يقف بعضهم في وجه الأساتذة والمشايخ، ممّن لهم أكثر من ثلاثين سنة أو أربعين في تدريس العلوم الشّرعيّة، ويرفضون أيّ مبادرة جادّة ومفيدة تصدر منهم، ولا يقبلون منهم أيّ تجديد في المناهج، أو تطوير في طرق التّدريس أو التّأليف، وأيّ مبادرة في الاجتهاد.

والمراد بأولائك الطّلبة أو هؤلاء الأستاذة والمشايخ، المبرّزون والمتميّزون، المشهود لهم بالكفاءة العلميّة، والمعروفون بالعدالة والأمانة، أمّا أهل الخمول والعجز والكسل، وأصحاب الشّهادات المزيّفة، وأهل الغرور وحب الظّهور، فلا مكان لهم في بحث أو إبداء رأي، لأنّ الشّريعة الغرّاء النّقيّة الطّاهرة يخدمها الصّادقون الأمناء الأقوياء في علمهم، كما قالت ابنة شعيب عليه السّلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: 26].

وكما قال بنو إسرائيل عن طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247].

وهو ما أشار إليه الحديث عند ابن عبد البر والبيهقي عن إبراهيم بن عبد الرحمن الْعُذْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ**».

وواقعنا المعاصر بما فيه من تحدّيات وتقلّبات، بحاجة إلى جهود جميع الكفاءات المخلصة، وأصحاب القدرات المتميّزة، وذوي العقول والإمكانات والخبرات العلميّة المبدعة، في جميع مجالات الحياة، وفي كافّة الموضوعات الفكريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافية، وساحة البحث العلمي والاجتهاد الفقهي لا تزال خصبة تنتظر من أبنائها الصّادقين القادرين أن يخوضوا غمارها ببحوثهم الجادّة ودراساتهم النّظريّة والميدانيّة الهادفة، لإعطاء الحلول الشّرعية الواقعية لمختلف المشكلات والقضايا.

ويا ليت هؤلاء المثبّطين يتركون العاملين في حقل البحث ينشطون، وليستريحوا في كهفهم المظلم القاتم، ولينـاموا في فراش الخمول والكسل كما يشاؤون، فقط ليسكتوا، فسكوتهم نجاة لأنفسهم وراحة لغيرهم، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النساء: 114].

وقال رسول الله ﷺ: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ، تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».